شَقّ صَدْر النَّبِي

وعادَ رسولُ الله ﷺ معَ السيدة حليمةَ السعدية إلى ديار بني سعد، وبقيَ حتَّى بلغَ أربعَ سنوات من عمرِه.

ثمَّ حدَثَ أنْ جاءَهُ جبريلُ - عليه السلامُ - وكانتْ حادثةُ شَقِّ الصدر. «أتاهُ جبريلُ فأخذَهُ فَصَجَعَهُ[1]، فشقَّ عن قلبه فاستخرَجَه، فاستخرج منهُ عَلَقَةَ ثمَّ قالَ: هذا حظُّ الشيطانِ منكَ، ثمَّ غسلَهُ في طِسْتٍ من ذهب بماء زمزمَ، ثم لأمَه وأعادَه إلى مكانه»[2].

وجاءَ الغلمانُ يسعَوْنَ إلى أمِّه - أي مُرضعته السيدة حليمةَ - أنَّ محمداً قدْ قُتل، فاستقبلُوه وهوَ مُمْتَقِعُ[3] اللون، وكانَ ذلكَ وهوَ ابنُ أربع سنوات.

وقد تكرَّرَتْ حادثةُ شقِّ الصدر في ليلة الإسراء، حَدَّث أنس قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: فُرج سقفُ بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل فَفَرَجَ صدري، ثم غَسَلَه بماء زمزم، ثم جاء بطست من

(١) طرحه على الأرض.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متغيِّر اللون.

ذهب ممتلئ حكمةً وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا. . .»[1]

وليسَتْ عمليةُ شقِّ الصدر، استئصالاً لغدَّة من الغُدَد في داخلِ الجسم أو قطعة لحمٍ تُقْطَعُ من داخل الجسد فيصبحُ بذلكَ خيِّرًا، وإلا لأمكنَ استبعادُ الشرِّ واستئصالُهُ بعملية جراحية. . كَلا، وإنما هيَ عمليةُ تطهير معنويٍّ أخذت الصورةَ الماديةَ والشكلَ المحسوس؛ ليكونَ في ذلكَ مزيدُ بيان وإيضاح، وإعلانٌ علَى مرأى ومسمع من الناس، ليؤمنُوا به، ويصدِّقوه. وما ذلكَ إلا بقدرة الله العزيز الحكيم؛ فالقصةُ ثابتةٌ صحيحةٌ، ولكنَّ إدراكَ حقيقتها وكَيفيتَها لا يعلمُهُ إلا اللهُ ومَن شاءَ من خَلْقه.

* * *

وعندمَا حدثتْ حادثةُ شَقِّ الصدر لرسول الله ﷺ قالَ زَوْجُ السيدة حليمةَ: يا حليمةُ، لقدْ خَشيتُ أنْ يكونَ هذَا الغلامُ قد أصيبَ، فألحقيه بأهله، قبلَ أن يظْهَرَ ذلكَ به.

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٩)، ومسلم رقم (١/ ١٤٨).

قالت السيدةُ حليمةُ: فاحتملناهُ فقدمْنَا به علَى أمِّه.

فقالتْ أمُّهُ السيدةُ آمنةُ: ما أقدَمَكِ به يا ظئر[1]. وقد كنت حريصةً عليه وعلَى مُكثه عندك؟

فقالتْ حليمةُ: قد بلغَ اللهُ بابني، وقضَيْتُ الذي عليَّ، وتخوَّفتُ الأحداثَ عليه، فأدَّيتهُ إليك كمَا تحبِّينَ.

فقالتْ آمنةُ متعجبةً: ما هذَا شأنُك، فاصدُقيني خبرك.

قالتْ حليمةُ: فلمْ تَدَعْني حتَّى أخبرتُها.

قالتْ آمنةُ: أفتَخوَّفْتِ عليه الشيطانَ؟

قالتْ حليمةُ: نعمْ.

قالتْ آمنةُ: كَلا. واللهِ ما للشيطانِ عليهِ من سبيلٍ، وإنَّ لابني لشأناً، أفَلا أخبرُك خبرَه؟

فقالتْ حليمةُ متشوِّقةً: بَلى.

---

(١) الظئر: المرضعة لغير ولدها.

قالت السيدةُ آمنةُ: رأيتُ حينَ حملتُ به أنَّهُ خرَجَ منِّي نورٌ أضاءَ لي قصورَ بُصْرَى من أرض الشام.. ثم حملتُ به، فوالله ما رأيتُ من حمل قطُّ كانَ أخفَّ ولا أيسرَ منهُ، ووقعَ حينَ ولدتُهُ، وإنَّه لواضعٌ يديْه بالأرض، رافعٌ رأسَهُ إلى السماءِ.

* * *

وما كادَ النبيُّ ﷺ يبلغُ ستَّ سنوات من طفولته حتَّى تُوُفِّيتْ أمُّه السيدةُ آمنةُ، وأصبحَ يتيمَ الأب والأمِّ، وبعدَ عامين من وفاة السيدة آمنةَ تُوفِّيَ جدُّه عبدُ المطلب، وكَفَلَهُ عمُّه أبو طالب. ومضت الأيامُ والسِّنون، وبلغَ النبيُّ ﷺ سنَّ الشبابِ وعملَ في التجارةِ.

لقدْ حفظَ اللهُ محمداً ﷺ منذُ ميلاده، وكانْت عنايةُ الله الدائمةُ له تُعدُّه للمرحلة المقبلة من حياته وهيَ مرحلةُ نزول الوحي الإلهيِّ والبدْءِ في تبليغ الرسالة.

وفي كلِّ مرحلة منْ مراحل حياته ﷺ نجدُ بشارةً أو إرهاصاً بنبُوته ورسالتهِ، ومنها حادثةُ شقِّ صدرهِ وهوَ في السنةِ الرابعةِ منْ عُمرهِ.

ولمَّا بلغَ رسولُ الله ﷺ اثنَيْ عشرَ عامًا حدثتْ بشارةٌ أخرَى برسالته

ونبوته؛ إذ ارتحلَ به عمُّه أبو طالب إلى الشام للتجارة حتى وصلَ إلى مدينة (بُصْرَى) منْ مدن الشام آنذاكَ. وكانَ في هذه المدينة راهبٌ عرف بـ (بَحيرَى) فلمَّا نزل الركبُ قريباً منه خرجَ إليهمْ ورحَّب بهم، ولفتَ نظرَه وجودُ محمد ﷺ بينهم، ودقَّقَ فيه النظرَ، فعرَفَه بصفته وعَرَفَ أنَّه النبيُّ المنتظرُ، فأخذَ بيد النبيِّ ﷺ قائلاً:

- هذَا سيدُ العالمينَ، هذا يبعثُه اللهُ رحمةً للعالمينَ.

فقالَ أبو طالب متعجبًا:

- وما علَّمكَ بذلك؟!

فقالَ بَحيرَى:

- إنكُمْ حينَ أشرفتُم منَ العقبة لمْ يبقَ حجرٌ ولا شجرٌ إلا وقدَّمتْ لهُ التحيةَ، ولا تصنعُ ذلكَ إلا لنبيٍّ. ولقد عَرفتهُ بخاتَم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنَّا نجدهُ في كتبنَا.

ثمَّ أخذ بَحيرَى بيد أبي طالب وحدَّثه بعيداً عن القوم، وقالَ لهُ ناصحًا:

- لا تقدمْ بهذَا الغلام إلى الشام، فإنِّي أخافُ عليه من اليهودِ.

فقالَ أبو طالب:

- وماذَا أفعلُ إذنْ؟

فقالَ بَحيرَى:

- رُدَّهُ إلى بلده ولا تخرجْه منهَا.

فردَّه أبو طالب إلى مكةَ معَ بعضِ غلمانِه.

* * *

obeikandl.com

شبابُ النبيّ ﷺ

لقدْ كانتْ مرحلةُ شبابه ﷺ طاهرةً نقيةً، مستقيمةً ذكيةً بعيدةً كلَّ البُعد عن اللهو والعبث، بعيدةً عن الشيطان ووساوسه وعنْ الهوَى وهَواجسه؛ فقدْ عصمهُ اللهُ تعالَى ورعاهُ، وحفظهُ من كلِّ سُوء، فشرحَ صدرَه، ولمْ يجعلْ للشيطان عليه منْ سبيل. وبرغم ما كانتْ تعجُّ به الحياةُ منْ حوله من لَهْو وعَبَث، ومنْ تهالُك الشباب وتهافتهم على مظاهر اللعب واللهو والطرَب فإنَّ شبابَ رسولنا ﷺ كانَ مصونًا منْ كلِّ دَنَس، محفوظاً منْ كلِّ سوءٍ أو شرٍّ.

وكانَ طبيعيًا أن ينشأَ هذه النشأةَ الطاهرةَ النقيةَ؛ لأنَّ العنايةَ الإلهيةَ كانتْ تُعدّه لأمر السماء، ووحي الله وتبليغ الرسالة، فلقد كانَ ﷺ دعوةَ أبيه إبراهيمَ، وبُشرَى أخيه عيسى عليهمَا السلامُ.

ولقدْ عاشَ رسولُ الله ﷺ فترةَ شبابه بالعمل والسَّعْي، واشتغلَ برعْي الأغنامِ، قالَ ﷺ:

«كنتُ أرعَى الغنمَ علَى قراريطَ لأهل مكةَ»[1].

(١) رواه البخاري.

وفي كَدِّه وجدِّه ﷺ، وفي اشتغاله بالعمل - رغمَ كفالة عمِّه لهُ - ما يفيدُ أهميةَ العمل، وأنَّ خيرَ ما يأكلُه الإنسانُ ما كانَ منْ عملِ يده، كمَا أن للعمل ثمرةً مهمة أخرَى بالإضافة إلى نفع الإنسان لنفسه، وتلكَ الثمرةُ هيَ انتفاعُ الحياةِ منَ العملِ، وازدهارُ حركة المجتمع فيهَا بالنشاط والتفاعُل معهَا.

* * *

وحفظَ اللهُ تعالَى رسولَه ﷺ منْ لهو الجاهلية وعبثها.

قالَ ﷺ: «ما هممتُ بشيء ممَّا كانُوا في الجاهلية يعملونَه غيرَ مرتين، كلُّ ذلكَ يحُولُ اللهُ بيني وبينَهُ، ثمَّ ما هممْتُ به حتَّى أكرمني اللهُ بالرسالة. قلتُ ليلةً للغلام الذي يرعَى معي بأعلَى مكةَ: لو أبصرتَ لي غنمي، حتَّى أدخلَ مكةَ، وأسمر بها كمَا يسمرُ الشبابُ.

فقالَ:

- أفعلُ.

فخرجتُ حتَّى إذا كنتُ بمكةَ سمعتُ عزفًا، فقلتُ: ما هذَا؟!

فقالُوا: عُرْسٌ.

فجلستُ أسمعُ، فضربَ اللهُ على أذني، فنمتُ، فما أيقظني إلا حَرُّ الشمس، فعدتُ إلى صاحبي، فسألني فأخبرتُه.

ثمَّ قلتُ لهُ ليلةً أخرَى مثلَ ذلكَ، ودخلتُ مكةَ، فأصابني مثلُ أول ليلة. ثمَّ ما هممْتُ بعدَهُ بسُوء[1].

هكَذَا كانت العنايةُ الإلهيةُ تحيطُ بحياة الرسول ﷺ في كلِّ لحظةٍ منَ اللحظات، وفي كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

واشتُهرَ ﷺ بينهمْ بالأمانة، والحكمة، وكلِّ فضيلة كريمة منَ الفضائل المُثْلَى، حتى أنهمْ كانُوا يتحاكمونَ إليه فيمَا شجرَ بينهمْ أو اختلفُوا فيه.

ومنْ المواقف المشهورة في ذلكَ موقفُه من وضع الحجر الأسود، عندمَا دبَّ الخلافُ بينَ قريش بسبب وضعه، فإنهمْ عندمَا انتهَوْا من بناء الكعبة إلى مكان الحجر الأسود قالتْ كلُّ قبيلة: نحنُ أحقُّ بوضعه واختلفُوا، وكادتْ تقعُ فتنةٌ كُبرَى، خيفَ منها القتالُ، ثمَّ انتهَوْا إلى أنْ يتحاكمُوا إلى أول مَنْ يدخلُ عليهم منْ باب بني شيبةَ، فيكونُ هوَ

(١) رواه الحاكم والطبراني.

الذي يقضي بينهمْ، فكانَ أولَ مَنْ دخلَ هو محمدٌ ﷺ .

فلمَّا رأوْه قالُوا: هذَا هوَ الأمينُ. قد رضينا بمَا قضَى بينَنا.

ثمَّ أخبروه بالأمر، فقالَ ﷺ : «هلُمَّ إليَّ ثوبًا. فأتيَ به فأخذَ الحجرَ الأسودَ فوضَعَه فيه بيده، ثمَّ قالَ: لتأخذْ كلُّ قبيلة بناحية منَ الثوب، ثم ارفعُوه جميعًا. ففعلُوا، حتَّى إذا بلَغُوا به موضِعَه وضعَه هو بيدِه، ثم بنَى عليهِ.